الجرأة في شعر الغزل النسائي في الأندلس

هادي طالب محسن العجيلي
جامعة بابل/كلية التربية للعلوم الانسانية
hadi.2006@yahoo.com

الخلاصة

الجرأة في شعر الغزل النسائي في الاندلس. بحث متخصص في الأدب الأندلسي يبحث عن الجرأة في شعر الشواعر الأندلسيات من حيث اسبابها وسعة المضمون ، والألفاظ المستخدمة فيه وخصوصية المجتمع الاندلسي الاجتماعية والسياسية واستثمار المرأة لهذا الانفتاح مبتعدة عن كل ما يقيدها من الاعراف الدينية والتقاليد الاجتماعية لتعبر عن نفسها لإثبات الذات و اثبات الجدارة . لذا فان عناية الدرس توجهت إلى دراسة هذه الجرأة التي جرتها إلى المساجلة،ودراسة اسبابها، فتناول موضوعات الغزل الذي تميزت فيه جرأتها وكذلك من حيث طبيعة الألفاظ الموظفة .

كل ذلك تم من خلال المنجز الشعري الذي تناقض بين السعة والضياع فما نقل من هذا المنجز قليل. كان في البحث عناوين فرعية تناولت المرأة من حيث المكانة والاهتمام. كذلك المرأة الأندلسية الشاعرة، الجرأة في معاني الغزل والجرأة في الألفاظ كونها مدلولا لهذه المعاني والاسفاف في استخدام هذه الالفاظ مما أخرجها عن المألوف المشرقي المتبع. ثم ختم الباحث البحث بأهم النتائج مفهرسا لمصادر البحث.

الكلمات المفتاحية:الأندلس،الجرأة،المعاني،الألفاظ،شواعر الأندلس،المجالس الأدبية،الغزل،المساجلات الشعرية،المطارحات الشعرية

Abstract

Audacity in romantic poetry of women in Andalusia is a study specialized in Andalusian literature, looking for courage in Andalusia women poets in terms of causes and breadth of content, and the words used in it and the social and political characteristics of Andalusian society besides the investment of women to this openness away from each religious limits, norms and social traditions to express themselves for self-assertion and prove merit. All this has been done through the capillary that contradict between what capacity and loss transferred of this accomplishment is very little. This study includes some sub-headings on women in terms of prestige and attention. Andalusian women poets show courage and boldness in terms of being a guide to these meanings and degrading in the use of this vocabulary, which directed the ordinary Levantine followed. The researcher indexed the most important results and mentions the used sources in the research.

Key words: Andale's, the audacity, meanings, vocabulary, Andale's poets, literary councils, Romantic, poetic competitions.

المقدمة

للمرأة الشاعرة حضور بارز في الأدب العربي عبر تاريخه الطويل، وقد أثبتت المرأة الشاعرة قدرتها على الإبداع والتعبير عن نفسها شعراً تتجلى فيه المخيلة وتتضح فيه صناعة الشعر والشاعرة الأندلسية فاقت صنواتها في بيئات الشعر العربية بالانفتاح على معطيات بيئتها في الانفتاح والتعبير عن نفسها، فكانت الأجرأ في تناول موضوعات الشعر من الأخريات لاسيما في موضوع الغزل ومعانيه فتميزنَّ بهذه الجرأة بل أباحتْ لنفسها أن تقف نداً للشعراء الكبار عبر مساجلات شعرية.بل تمادت في بعض الموضوعات فأسَفَّت في

استعمال المعنى واللغة إسفافاً جعلها متفردة في ذلك بل وأخرجها عن المألوف في التعاطي مع هذه الموضوعات .

لذا فان عناية الدرس توجهت إلى دراسة هذه الجرأة التي جرتها إلى المساجلة،ودراسة اسبابها، فتناول موضوعات الغزل الذي تميزت فيه جرأتها وكذلك من حيث طبيعة الألفاظ الموظفة .

وعلى الرغم من كثرة الشواعر في الأندلس اذ يصل عددهن إلى ما يقرب الثلاثين شاعرة ، مقارنة بمثيلاتها في المشرق العربي إلا أن ما يشوب منجزهنَّ الشعري هو التناقض بين ما نقل من أخبار في متون الكتب عن هذا المنجز وكثرته،وتنوعه،وبين ما تجده من نقص في هذا المنجز الشعري فلم يصلنا ما يوازي ما أُخبرنا عنه، فعلى سبيل المثال لا الحصر إنَّ الشاعرات مريم الانصاري، والشاعرة عائشة القرطبية، وولادة بنت المستكفي،وصفن بغزارة الشعر وجودته لكن لم يصلنا سوى بضعة أبيات لهذه الشاعرة أو تلك، بل إن بعضهن لم يصل إلينا من شعرها إلاّ شطر بيت أجازته في حين تصفها كتب تاريخ الأدب بأنها شاعرة ولها شعر معروف مثال ذلك اعتماد الروميكية زوج المعتمد،وينسحب الأمر على المشهورات منهن كنزهون القليعي وحفصة الركونية وحسانة التميمية وغيرهن. وجل ما نقل من أشعارهن نقله صاحب نفح الطيب فكان مورد الدرس بالدرجة الأساس.سعى هذا البحث إلى تتَبّع مواطن الجرأة في موضوعات غزلهن من حيث ألفاظه وتراكيب اللغة المستخدمة لذلك آملين في أن نعطي الدرس حقه لننتهي إلى فائدة ومتعة٠ والله الموفق.

المرأة في الأندلس:الاهتمام والمكانة

قُدر لأهل الأندلس أن يعيشوا بسعة في المكان فكان التنوع حاضراً، وأن يُعمرّوا فيها ردحاً طويلاً من الزمن يمتد إلى أكثر من سبعة قرون وقُدّر لهم أن يعيشوا في ظل استقرار نسبي في بعض عصورهم هناك ٠ وكان الاختلاط مع الأجناس الأخرى مهما والثراء كذلك أيضا ٠٠٠ وكل هذه العوامل ساعدتهم على أن يصنعوا مدنية وحضارة ، فكراً وعمراناً وأدباً .

كان نصيبُ المرأة الأندلسية من هذه السعة الحضور وتجلي المكانة،وفسحة من الحرية نتيجة للامتزاج الذي كان سائداً بين عناصر تكوين المجتمع الأندلسي، فاحتلت المكانة المرموقة وصارت تتمتع بشخصية وسعي لإثبات ذات ونجاح في ذلك السعي [١]٠مما لم تألفه البيئات العربية الإسلامية الأخرى بالدرجة نفسها،(فقد عيب على المشارقة حرمانهم المرأة من تمتعها بقواعد الإنسانية وكأنها لم تخلق إلا للولادة وإرضاع الأطفال)[٢] .

ولمجتمع مثل مجتمع الأندلس المتقلب في الأدوار لابد أن يكون هناك تباين وفقاً لمعطيات الحياة السياسية لكل عصر من عصورها، بين الانفتاح والانغلاق والاستقرار واللااستقرار، لكن نظرة سريعة عامة لخصوصية بيئة الأندلس ندرك تماماً أنها بيئة مختلفة عن غيرها، فأجواء الحروب وأجواء السلم والفتن كانت عاملاً من عوامل الانفتاح والتداخل فكثرة الحروب إلى جانب فترة الرخاء نشطت تجارة الجواري والرقيق والغلمان والفتيان سواء أكانوا من الإسبان أم من الوافدات من المشرق،ثم أثر ذلك في التفاعل السكاني الحاصل والتداخل بين الأجناس والفئات وخضوع الكل إلى ظروف تاريخية مشتركة وبيئة واحدة،أنتجت تلاقحاً بين الثقافات وتوحداً في أسلوب الحياة المشتركة[٣] . وهذا بدوره أدى إلى ازدياد إقبال الأندلسيين على

(١) ينظر : الادب في الأندلس ، تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه ، د. علي محمد سلامة ، الدار العربية للموسوعات ، ط١ ، ١٩٨٩ : ٣٧ .

(٢) نقلاً عن : ظهر الاسلام ، احمد امين ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١ : ٢٥٧ .

(٣) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي ، د. عمر الدقاق ، دار الشرق العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٣ : ٢٦ . وكذلك الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د. محمد مجيد السعيد ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ : ٥١ .

الحياة ومشاركة المرأة في صنعها، فكان الجد واللهو فيها والمتعة المنشودة فمالوا إلى الشعر اظهاراً للمتعة والترف والنعيم وتعبيرا عن روح الطرب والغناء والمرح التي كانت المرأة مركز الاستقطاب فيها ومحورها، مما أضفى على الشعر حلاوة وطلاوة التجديد[١] ، (هذا لا يعني أنَّها لم تكن محوراً لإنتاج الحياة فكانت الطبيبة والحجامة،والدلالة،والماشطة،والنائحة،والكاهنة،والمعلمة،والصانعة، في المغازل والنسيج والبناء)[٢] .

هذا الاستقطاب الذي مثلته المرأة للبيئة العربية الأندلسية له ما يبررهُ لاسيما إذا عرفنا أن الإنسان العربي وطئت قدمه هذه الجزيرة محارباً ولم يصحب معه زوجةً أو نساءً . فكان لزاماً عليه إشباع رغباته والتمازج مع ما موجود أو ما يتم استيراده من نساء،مما أكسبها أهمية في حياة الرجل العربي ومشاركتهُ لها ، وهيأ لها أجواء الشعور بالاهتمام والأريحية فاكتسبت طباعاً ربما تختلف عن بعض طباع المرأة المشرقية فنراها لها مثل ما للرجال من صفات فكن يلبسن الأبيض عند الحداد،ومنهن من يحسن قول الشعر، وأداء الإيقاع والغناء، بل كن أصحاب مجالس أدبية،واجتماعية تفصح عن الحرية ومخالطة الرجال مبتعدة عن القيود الاجتماعية بشيء يسير وعن القيم الدينية مما يتعلق بتحريم الخمر وحجب المرأة وذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين وإظهار تلك العلاقة والتصريح بها وكان للملوك والأمراء أثر في تخفيف تلك القيود والتخفيف من سطوة التعاليم الدينية وكان الكثير منهم يجاهر بذلك[٣] . فقد كانت قصورهم وبساتينهم ، وحياتهم المترفة الحافلة باللهو والطرب والجواري والغلمان والخمر شواهد على ذلك . حتى عُزي سبب ذلك إلى الفقهاء بخروجهم عن النسق الديني بقربهم من موائد القصور وتزكية تصرفات هذا الحاكم أو ذاك الأمير طلباً للنفوذ والمال والمكانة،حتى انهارت في بعض عصور الأندلس كثير من المعايير الأخلاقية وشيوع أجواء التحلل والتهتك وضعف الإيمان والعقيدة ، واختلاط الحق والباطل – على رأيهم – ولم يعد الناس يهتدون بالوسيلة بل يذهبون إلى الغاية وتحقيق الكسب بأي وسيلة[٤]. (ففي الأندلس مزيج مدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء العسكري والسياسي وقوة التراث الفكري والحضارة الإنسانية)[٥] ،وإشعاع حضارة أهل الأندلس وثقافتهم نقلته مصادر شتى يمكن الاطلاع عليها[٦] .

في كل ذلك لم تغب مكانة المرأة وعلو شأنها وارتفاع صوتها السياسي والأدبي واتضاح مجال حريتها في التعبير عن مشاعرها وحاجاتها، بل إن الإجراءات الإدارية كانت تصل إلى كل التفاصيل الخاصة بتنظيم العلاقة بالجواري وحفظ حقوقهن، ككتابة عقد البيع وبيان الأسباب[٧]. ثم عدم وجود النظرة القاصرة إلى الجارية فمنهن أصبحن سيدات القصر فعلى سبيل المثال اعتماد الروميكية زوجة المعتمد وأم الأمراء

---

(١) التجديد في الأدب الأندلسي: د. باقر سماكة ،مطبعة الأيمان ،بغداد ،١٩٧١، ط١ :١٣٣

(٢) ينظر : الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة ، د. رضا هادي عباس ، منشورات ELGA ، ١٩٨٨ ، نص رقم (٣٦) ونص رقم (٣٧) : ١٣٣ .

(٣) ينظر : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الكتاب الثاني من دولة الاسلام في الأندلس) ، محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٠ : ٤٠٦-٤٠٨ .

(٤) المصدر السابق : ٤٠٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٤١٤ .

(٦) ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني(ت. ١٠٤١هـ) ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، مكتبة البحوث في دار الفكر ، لبنان ، ١٩٩٨ . وكذلك الذخيرة في سن أهل الجزيرة : لابن بسام الشنتريني (ت. ٥٤٢هـ) ، تح. د. احسان عباس ، ط١، بيروت ، دار الثقافة ، ق١ ق٢ ق٣ ق٤ . وكذلك تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي د. حسن ابراهيم حسن ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، د.ت . وكذلك تاريخ المغرب الأندلسي في العصر الإسلامي : د. محمد سعيد رضا علو العتبي ود. محمد بشر حسن راضي العاملي : وزارة التعليم العالي العراقية ، بابل ، مكتبة الياسين ، د.ت .

(٧) ينظر : الشعر في عهد المرابطين بالأندلس : ٥٠ . وكذلك تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والاجتماعي : ٦٤٣/٤ .

أولاده وغيرها.وأصبحن حضيات الحاكم لاسيما إذا كانت تحسن فناً[١] . بل إن نوع الجارية ورقيّها تباهٍ إن كانت كذلك وأصبحت جزءاً من مظاهر التضخيم والأُبهة التي حفلت بها قصورهم . ومما نقله صاحب المقتبس عن نساء قصر الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ قال لحاجبه (إن بعض كرائمنا سألتنا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة ، فأخرج من فورك وانظر في إقامة ما تحتاج إليه للنزهة واعمل بذلك فإنا متحركون صبيحة غد)[٢]، فيما كان حفيده عبد الرحمن الناصر يجعل (رسيس) – وهي سيدة أندلسية مهيبة– من بعض موكبه سافرة بقلنسوة ويتجه بها إلى الزهراء التي بناها وبعضهن من العامة يبرزن سافرات وقد تضع وشاحاً على عاتقها[٣] .

المرأة الأندلسية الشاعرة :مثلما أقبلت المرأة الأندلسية على العلم والتثقف بثقافة بيئتها ودينها فكانت عالمة في الفقه والحديث والأصول ومعلمة للصبيان،ومكتسبة ثقافة بيئتها الأدبية فكانت كاتبة وشاعرة[٤] . حفظت الأشعار واستوعبت علوم البلاغة وهضمت التراث وقرأت لفحول الشعراء وساجلت كبار شعراء عصرها فكانت لها مساهمة واسعة في ضروب النشاط الأدبي من شعرٍ ونثرٍ وموشحات ومساجلات شعرية[٥] .

ولقد أحصى الأستاذ محمد المنتظر في كتابه (الشعر النسوي في الأندلس) خمساً وعشرين شاعرة أندلسية موزعة على مختلف عصور الأندلس، فيما أحصى سعد بوقلاقة في كتابه (الشعر النسوي في الأندلس أغراضه وخصائصه الفنية) سبعاً وعشرين شاعرة[٦] .

وعلى ما يبدو فإن مشاركة الشاعرة الأندلسية في النشاط الأدبي أتاح لها أن تمارس طقوساً خاصة أوجدتها لنفسها، وصارت جزءاً من الممارسة اليومية لحريتها في التعبير منها إنها اعتادت على مخالطة الرجال وحضور مجالسهم والمشاركة في مطارحاتهم الشعرية والاستمتاع بحرية الإنشاد والاستماع فضلاً عن التعبير بجرأة عن مختلف الموضوعات في شعرها غير أبهة بما فرضته قيم العامة المتحفظة نسبياً . بل اتسعت حريتهن أكثر عندما أصبحن صاحبات مجالس خاصة بهن يدعى لها بعض الشعراء ويفد إليها شعراء آخرون لعرض أشعارهم ومساجلتهن في أغلب الأحيان٠ وتدل الحكايات الواردة على أن اختلاط النساء بالرجال لم يكن مستنكراً عند الجميع وما أدل على ذلك من مجالس ولادة الأدبية ومجالس نزهون القلعية الغرناطية وحفصة الركونية[٧]، وهذا أدى إلى اتساع الموضوعات التي تطرحها المرأة غزلاً أو رثاءً أو مدحاً أو هجاء ولم يتحرج بعضهن تتحرج من التغزل بالغلمان، والدعوة إلى اللقاء والأنس، والتغني بميزات جمال الجسد وساعد في ذلك أجواء المجتمع وخصوصية المرأة الأندلسية فقد ذكر صاحب الذخيرة (كان مجلس ولادة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعب لجياد النظم والنثر يعشوا أهل الأدب إلى حنو غرتها ، لحلاوة

---

(١) تاريخ الادب الأندلسي (عصر الطوائف) : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٦٢ : ٥٢ .

(٢) المصدر السابق : ٥٢.

(٣) المصدر نفسه : ٥٣ .

(٤) ينظر في ذلك نفح الطيب : ج٥ ،وكذلك والبيان المغرب في اشعار اهل الأندلس والمغرب لابن نداء المراكشي ، تحقيق اليفي بروفنسال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٩ : ٤٩٣/٢ . وكذلك قراءات في الشعر الأندلسي: د. صلاح جرار ، دار المسيرة للتوزيع والنشر ، الاردن ، ط٢ ، ٢٠٠٩ : ١٧١ .

(٥) ينظر المصدر نفسه .

(٦) ينظر الشعر النسوي في الأندلس : محمد المنتظر ، تقديم عبد الله كنون ، منشورات دار الحياة ، بيروت، ١٩٧٨ . وكذلك الشعر النسوي في الأندلس اغراضه وخصائصه الفنية ، سعد بوقلاقة ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، ١٩٩٥ . وكذلك قراءات في الشعر الأندلسي : ١٧١ .

(٧) الذخيرة : ق١ م٢ : ٢٢٩ . وكذلك نفح الطيب : ٥ : ١٣٣ وما بعدها، وكذلك الادب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٦٢ : ٣١ . كذلك الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس : ٤٩ .

عشرتها وسهولة حجابها)[١]،فيما نقل عن نزهون خفة ظلّها وكلف الشعراء بها وبمحادثتها وكانت تجالسهم وأحياناً تهاجيهم بسلاطة اللسان[٢] .

ويبدو أن كثرة هذه المجالس، وشهرة صاحبها، وآليات إدارتها من قبل الشاعرات زد على ذلك وفرة مجالات الغناء والرقص والشعر ،كانت عامل جذب لإنعاش تجارة الجواري والفتيان ومنهن شاعرات وجدن مجالاً للخيلاء، والتعبير عن أنفسهن وجمالهن بصراحة وجرأة غير معهودة بل إن الصور الشعرية لم تخل من الحسية المفرطة ، والدعوة إلى التأمل بالجسد ورشاقته وإظهار المفاتن وجمال الثغر والابتسام على لسان الشاعرات[٣] ، فولادة خير مثال لهذا التوجه إذ تقول في بيت لها[٤] :

وأُمكّن عاشقي من صَحن خدي

وأعطي قبلَتي مَنْ يشتهيها

بل بلغت جرأة الشاعرة الأندلسية أنها تفد على الأمراء والملوك لمديحهم وتتكسب بشعرها، ومنهن مَنْ شاركت في النقد السياسي بشعرها ، ولكننا آثرنا الاقتصار البحث في مسألة الجرأة في الشعر النسوي في الغزل والجرأة فيه والشاعرات المعروفات بالغزل

الجرأة في معاني الغزل:شعر الغزل ليس وقفاً على الرجل هذا ما حاولت الشاعرة الأندلسية اظهاره وان تمضي قدماً في وضع قدم ثبات في الشعر الأندلسي، لأن المشاعر البشرية لم تكن حكراً على الذكورة دون الأنوثة ، لكن منظومة القيم الدينية،والسياسية ، والاجتماعية تمثل البرزخ الفاصل بين الغريب والمألوف مما جعل النظر يتعاقد على أن الخروج من هذا النسق الديني أو الاجتماعي إنمّا هو جرأة من الشواعر دون أن يُعد ذلك خروجاً عن المألوف إن صدر من مشاعر ذكورية تتعاطى مع الغزل بأنماطه المعروفة .

لكن الشاعرة الأندلسية خلقت لنفسها طقوساً ساعدتها فيها مجموعة المؤثرات الخاصة بالبيئة الأندلسية وتركيب المجتمع فيها،ومثل هذا قد لا يكون متاحا لشواعر أخر في بيئات الشعر العربي المختلفة ، فصار الإعلان عن مشاعر الشاعرة الأندلسية طقساً خاصاً، والتعبير عن هذه المشاعر تعبيراً شعرياً طقساً آخرَ ومخالطة الرجال في مطارحات الشعر يضاف إلى طقوسها الأخرى ، والتغني بجمالها ومميزات الجسد حقيقة أخرى تمتاز بها، وبذلك نابت الشاعرة الأندلسية عن المرأة الأندلسية لأنها ذات واعية ومدركة لما تفعل.

وأكثر المشاعر ألماً في الظهور هي مشاعر الود والحب والهوى وعلى الرغم من قسوة هذه المشاعر وألمها فقد اخترقت الشاعرة الأندلسية حاجز الألم لتنفس عن نفسها المتعطشة لهذا الود والحب والعشق فهي لا تحتمل الصمت فتبقى حبيسة في بواطنها ملتهبة فأصبحت هذه المشاعر قصائد وأبياتاً شعرية كانت مثار إعجاب ودهشة مثلما كانت مثار جدل واختلاف في الرؤية،فالشاعرة (متعة) –وهي جارية زرياب المغني والموسيقي المشهور– صالت في رحاب الشعر بهذا الاتجاه غزلاً وغناءً أدبَّها زرياب وكانت توصف بالجمال، وحُسن الصوت . تتصرف على وفق ما تحس به فأبدت ما أضمرت ، فقد غنت بين يدي الأمير عبد

(١) الذخيرة : ق١ م١ : ٢٢٩ .

(٢) نفح الطيب : ٤ : ٢٩٦ .

(٣) نفح الطيب : ٥ : ١٣٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٥ :١٣٣

الرحمن بن الحكم مرة وسقته،فلمّا فطن لها أعجبته،وأثار هو إعجابها لكنّه أبى إلا التستر[١]،فغنتّه هذه الأبيات[٢] :

يا مَنْ يُغطي هواه ... مَنْ ذا يُغطّي النهارا
قد كنتُ أملك قلبي ... حتى علقتُ فطارا
يا ويلتا أتَراه ... لي كان أو مُستعارا
يا بأبي قرشيٌّ ... خلعتُ فيه العِذَارَا

ومن خلال هذه المقطوعة استطاعت أن تنفذ إلى غايتها وهي الافصاح عن فرط اعجابها بالأمير فانتقلت من التلميح إلى التصريح بذكره وهي تغني بين يدي الأمير... فأدرك ذلك زرياب فأهداها للأمير[٣] .

ومما يروى بهذا الشأن للشاعرة حمدة بن زياد المؤدب بواد في آش انها (أنشدت لنفسها وكانت قد خرجت متنزهةً بالرملة من نواحي وادي آش فرأت ذات وجه وسيم اعجبها فلم تخفِ إعجابها ، وقد نسب إليها هذه الأبيات التي تقول فيها[٤] :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ ... سَقاهُ مضاعفَ الغيثُ العميمِ
حللْنا دوحه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيمِ
وأرشفنا على ضمإ زُلالاً ... ألذُّ من المدامة للنَّديمِ
يصدّ الشمسَ أنّى واجهتنا ... فيحجبُها ويأذنُ للنسيمِ
يرُوعُ حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانبَ العقد النظيمِ

وتسرد مشاهد الود واللطف ، وكان الحنين حنين مرضعات لفطيم ، فقد صدّ جبينه الشمس ولم يأذن إلا للنسيم يداعب الشعر والجسد .

فيما كانت أم الكرام أكثر جرأة من سابقتها فقد عشقت فتىً مشهور الجمال من دانية أسمه (السمار) غير مبالية بما قيل ويقال وعملت فيه أبياتاً وشعراً وموشحات ، قالت فيه[٥] :

يا معشرَ الناس ألا فأعجبوا ... ممّا جنتهُ لوعة الحبِّ
لولاه لم ينزلْ ببدر الدجى ... من أفقهِ العلوي للتربِ
حسبي بمن أهواه لو أنه ... فارقني تابعهُ قلبي

هذا الخطاب من القلة التي يألفها شعرنا العربي أن تبدأ الخطاب الجمعي (يا معشر) ثم العرض (ألا فأعجبوا) وهذا التغزل كونه صادر من ذات الأنثى فأنها أيضاً وجهت العناية إلى الفسحة من الحرية التي تمتع بها الشاعرة الاندلسية وهي بذلك رسمت لوحة لمواقف الحب بألفاظ رقيقة صريحة حقيقية أو خيال رحب،

(١) نفح الطيب : ٣ : ٣٨٩ .
(٢) المصدر نفسه : ٣ : ٣٨٩ .
(٣) المصدر نفسه : ٣ : ٣٩٠ .
(٤) المصدر نفسه : ٥: ٢٠٦ .
(٥) المصدر السابق: ٥ : ٢٠٦ .

علقت على هذه اللوحة شهادة ليس لموضوع الغزل فحسب بل شهادة لعصرها ولحرية الشواعر الأندلسيات فكن صريحات حين يشهدن بأن الحب لا يخفى[١] .

فولادة بنت المستكفي بالله (خليفة المسلمين) محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وهي من أشهر نساء الأندلس لارتباطها بالسلطة من جهة ولشاعريتها من جهة أخرى ولكونها أحدى طرفي أشهر قصة حب عرفتها الأندلس مع ابن زيدون الشاعر المعروف من جهة ثالثة [٢] ، فهي تعبر عن مسار الانفتاح الذي اتخذته السلطة فكانت أنموذجاً لهذا الانفتاح فقد عبرت عن نفسها بصراحة وثقة حين تقول[٣] :

أنـــــا واللهِ أصـــــلحُ للمعـــــالي ... وأمـــشي مـــشيتي وأتيـــهُ فيهـــا
وأُمكـــن عاشـــقي مـــن صـــحنِ خـــدي ... وأُعطـــي قبلتـــي مَـــنْ يـــشتهيها

وعلى ما يبدو فأن ولادة قد نسجت من هذين البيتين بساطاً تسير عليه شواعر عصرها ففتحت المجال لغيرها للاحتذاء بها لأنها تمثل قامة سلطوية (دينية،دنيوية) وبالتالي فلا تلام مَن تكن قد اتخذت هذا المنهج من بعدها، فهي تمكن العاشقين من غرائزهم وهذه قمة الجرأة في إظهار رغبتها وحميميتها.

ولقبت ولادة بـــ(علية)[*] المغرب لقوة شعرها،وسهولة لفظها ، وسلامة عباراتها ، فهي أقرب لشعر الرجال منه إلى شعر الرجال في نظمه من الحب والفخر والفكاهة والدعابة وخفة الدم [٤] . ولولادة مع ابن زيدون مساجلات وحواريات ومطارحات شعرية تخرج به حتى من حصن العفاف وتخدش الحياء وهذا ما يدهش في شعر ولادة لأنها كما قلنا تمثل أفق السلطة وتدنيها ونسقها الديني لذلك صارت ولادة علامة فارقة في محيا أدب أهل الأندلس الثقافي فقد كتبت يوماً لابن زيدون بعد أن أولع بها بعد طول تمنع منها[٥] :

تَرقـــبْ إذا جـــنَّ الظـــلامُ زيـــارتي ... فـــأنِّي رأيـــتُ الليـــلَ أكـــتمُ للـــسرِ
وبي منكَ مـــا لـــو كـــان بالـــشمسِ لـــم تلـــحْ ... وبالبـــدرِ لـــم يطلـــعْ وبـــالنجم لـــم يـــسرِ

فالجرأة بالخروج وقد جن الظلام له دلالته في جرأة النساء فالاستعداد النفسي إنما يكون للمرأة في مستقرها وعلى الرجل المغامرة في في هذه الظروف ، فلما وفت بما وعدت ودعته بقولها[٦] :

---

(١) اتجاهات الشعر الأندلسي : د. نافع محمود ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ط١ : ٢٠٥ .

(٢) لديها اشهر قصة حب في الاندلس مع ابن زيدون ولها مواقف طريفة ذكرتها شعرا وقد ذكرها ابن زيدون في شعره ورسائله النثرية . ينظر في ذلك: نفح الطيب :٤/٢٠٦ . وكذلك سرح العيون في شرح رسائل ابن زيدون : جمال الدين بن نباته المصري ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت) : ٢٣

(٣) نفح الطيب : ٥ : ١٣٣ .

(*) علية بنت المهدي، مغنية من احسن الناس وأظرفهم تقول الشعر الجيد ، وكانت جريئة في حبها تصرح بعشقها لغلام اسمه(طل) وكانت تراسله شعرا ، وحدث انها لم تره لايام فكتبت :

قد كان ما كلفـــــــــــــته زمنا ... ياطـــــــــلُ من وجـــــــــــد بكم يكـــــــــفي
حتى اتيتـــــــــــــك زائرا عجلا ... أمشي على حتف الى حتف

ينظر في اخبارها: اخبار من غنوا ومن غني بشعرهم من الخلفاء والامراء ونحوهم من ذوي الشأن من ظهور الاسلام الى القرن الرابع الهجري (السفر الاول) اخرجه وقدم له : قاسم وهب ، وزارة الثقافة /المختار من التراث (١١٩) سوريا ، دمشق ٢٠٠١ :٢٥٦.

(٤) نفح الطيب : ٥: ١٣٦

(٥) الادب الأندلسي : التطور والتجديد : د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت، لبنان ط١ ، ١٩٩٢ .: ٨٥ .

(٦) نفح الطيب : ١٣٥ .

ودَّع الـــــصبرَّ محـــــبٌ ودعـــــك ذائـــع فـــي ســـرّه مـــا اســـتودعك
يقـــرعُ الـــسنَّ علـــى أن لـــم يكـــن زادَ فـــي تلـــك الخُطـــا إذ شـــيعك
يـــا أخـــا البـــدر ســـناءً وســـنا حفـــظَ اللهُ زمانـــاً أطلعـــك
إن يطيـــلَ بعـــدك ليلـــي فلكـــم بـــتُّ أشـــكوُ قـــصرَ الليـــل معـــك

فتهيئة الأجواء من طباع الذكور لكن في شعر ولادة فالحال مختلف وتبث من خـلال شـعرها أحـر لواعجها بجرأتها المعهودة ومخيلتها الخصبة ، لذا عدت ولادة (شاعرة جزلة القول ، حسنة الـشعر وكانـت تناضل الشعراء وتساجل الادباء عمرت طويلاً ولم تتزوج قط)[١] .

الشاعرة نزهون الغرناطية ، وهي من أهل المائة الخامسة وقد وصف د. مصطفى الشكعة شـعرها (كان في سلوكها وشعرها نوع من التحلل والابتذال والفحش مما يشير إلى نفسية متحررة ماجنـة لا تعـرف الحياء الذي يستحب بالمرأة ويطلب منها بشدة)[٢] . واعتقد انها صراحة غير معهودة وجـرأة غيـر مألوفـة بخطابها ارتضتها روح العصر ، ومعطياته ، ذلك أن أكثر معطيات شعرها إنمّا هي مساجلات تحتـاج إلـى ردود وأقوال لا مبادرة فيها وفعل .

ومن شعرها في هذا الاتجاه[٣] :

لله درّ الليـــــالي مـــــا أُحيـــــسنها ومـــا أحـــسَن منهـــا ليلـــة الأحـــد
لـــو كنـــتَ حاضـــرتها وقـــد غلقّـــت عـــينُ الرقيـــب فلـــم تنظـــرْ إلـــى أحـــد
أبـــصرتَ شـــمسَ الـــضحى فـــي ســـاعدي قمـــر بـــل ريـــمَ خازمـــةٍ فـــي ســـاعد أســـد

وهذا منتهى الجرأة والتصوير والرغبة الجسدية لم تتوان نزهون في إيضاحها ، وحُـسن تـشبيه مفـاتن الجسد بل أجادت فناً في رسم الصورة في تلاحم الهوى ، وغليان الحب في مشهد حركي جنسي قلما يـصدر عن ذات أنثى تعبّر عنه وتتفاخر به ويعد شعر نزهون أنه شعر(ابنة المدينة وصدى لقيمها) [٤].

ويدخل ضمن طقوسها لذاتها واثبات جدارتها المساجلات الشعرية أو المطارحات ، وهي لون من ألـوان الجرأة والحرية والاطمئنان والانفتاح على الآخر كانت المساجلة الشعرية أو المطارحات لتمتـاز بهـا عبـر حوارات شعرية تكشف عن خبايا هذه الذات وتقف نداً للشعراء ، ورغبة منها في الظهور والاعلان وشـرف المنافسة مع الكبار من شعراء عصرها . فجسدته الشاعرة الأندلسية عبر أبيات تقارع بها الآخر ، فقد وردت في الأخبار إن المعتمد بن عباد قد ركب ذات يوم النهر، ومعه ابن عمار نديمه ، وصديقه ، ووزيـره وقـد زردت الريحُ النهرَ فقال المعتمد لأبن عمار أجز :

(صنع الريح من الماء زرد :

فأطال ابن عمار الفكرة ! فقالت امرأة من الغسالات على النهر

أي درع لقتال لو جمد؟

صنع الريح من الماء زرد أيّ درع لقتال لو جمد؟)[١]

---

(١) المصدر نفسه : ٥ : ١٣٥ .

(٢) الادب الأندلسي (الشكعة) : ١٧٥ .

(٣) نفح الطيب : ٥ : ٢١٥ .

(٤)الادب الأندلسي (الشكعة) : ١٥٦

فتعجب المعتمد من حُسن ما أتت به مع عجز شاعر كبير مثل ابن عمار فنظر اليها فأعجبته (فسألها : أذات زوج ؟ فقالت:لا فتزوجها)[٢] !

وعلى ما يبدو أن أكثر المساجلات التي تمتاز بالجرأة إنمّا يكون المُرسِل على الأعم الأغلب من الشاعرات الجواري لغاية نفعية أما حباً للظهور أمام مولاها والحضور عنده ، أو للتنفيس عن حالة العبودية في داخلها والثقة بجمالها ، وحُسن مفاتنها أو أداء مهمتها فلم يخفينّ ذلك ، ففي شعر لجارية تماثل اعتماد الروميكية نجد (غاية المنى) وهي جارية من جواري المعتصم بن صمادح ملك دولة بني صمادح صنعت ما صنعت اعتماد الرميكية فقد سقت يوماً سيدها فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى ٠

فقال لها أجيزي[٣] :

أسألوا غاية المنى

فأجابت : أسألوا غاية المنى من كسا جسمي الظنى

واراني مولعاً سيقول الهوى أنا

فعبارة (الهوى أنا) تنبع عن ثقة بما تحسنه ارادت امتلاك قلب سيدها واتم لها ذلك ربما للحظوة والمكانة.

وحسب المتتبع لهذا الموضوع أن يطلّع على شعر ولادة ونزهون وحفصة فيدرك أن موضوع المساجلات وأجواء الانفتاح والحرية صار عرفاً ،لاسيما في عصر الطوائف ، ويشم عبق ما تتمتع به من طيب الطمأنينة ووشائج التواصل واللهو والمتعة مع مكانة ايجابية للشاعرة الأندلسية وحُسن اختلاطها بالرجل على الرغم من مكانة ولادة الإجتماعية لكن المجتمع الأندلسي بات لايقم اهتماما كبيرا للعرف والعادات بدليل تقبله الخروج عن المألوف السائد بغض النظر عن شكل الخروج وحجمه.

وتوصف مساجلات نزهون الغرناطية ، بـ(خفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة... وانها ماجنة)[٤] وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بها وبمذاكرتها فكتب إليها مرة[٥] :

يا مَنْ له ألفُ خلٍّ مِنْ عاشقٍ وصديق

أراكِ خُليت للنا سِ منزلاً في الطريق

فأجابته[٦] :

حللتَ أبا بكرٍ محلاً منعتَه سواك وهل غير الحبيب له صدري

وإنْ كان ما بي كم من حبيبٍ فإنمّا يقدمُ أهلٌ الحقِ حبَ أبي بكر

ومن المساجلات الطريفة التي لم تخلُ من تراشق بالألفاظ ما كان بينها وبين المخزومي الشاعر الأعمى إذ قال مرة فيها[٧] :

---

(١) نفح الطيب : ٥ : ١٣٨-١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ : ١٣٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٥ : ٢٠٦ .

(٤) نفح الطيب : ٥ : ٢١٤-٢١٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٥/٢١٢ .

(٦) المصدر نفسه : ٥/٢١٢ .

(٧) المصدر نفسه : ١ : ١٦١ . ولها مساجلات ونقائض مع هذا المخزومي الأعمى لم نردها حياءً . ينظر : نفح الطيب : ١ : ١٥٩-١٦٣ .

وعلى وجه نزهون من الحسنِ مسحةُ
وتحت الثيابِ العارُ لو كان باديا
قواصدُ نزهون توارك غـــــيرَها
ومِنْ قصدَ البحرَ استقلَ السواقيا

فأجابته[١] :

إنْ كـــــان مـــــا قلـــــت حقـــــاً ... مـــــن بعـــــض عهـــــدٍ كـــــريم
فـــــصار ذكـــــرى ذميمـــــاً ... يغـــــزى إلـــــى كـــــل يـــــوم
وصـــــرتُ أقـــــبحُ شـــــيءٍ ... فـــــي صـــــورة المخزومـــــي

ولها رد أخر في مساجلة اخرى بأبيات شعرية تخرج فيها عن حصن العفاف والذوق بألفاظ نابية سوقية ، كان مطلع هذه الأبيات[٢]:

قُـــــلْ للوَضيـــــع مقـــــالاً
يُتلـــى إلى حيـــــن يحشـــــرْ
من المَـــــدوّر أُنْشِـــــئـــــ
ـــت و٠٠٠٠منه أعطـــــــــــــــــر[٣]
. . . . . .

فامتلكت اللسان السليط والشجاعة في رد المخزومي المعروف بهجائه المقذع

وقال لها بعض الثقلاء : (ما على من أكل خمسمائة سوط) فقالت[٤] :

وذي شـــقوةٍ لما رآنـــــــــــي رأى له
تمنِّيه أن يَصْلى معي حاجمَ الضَّرب
فقلت له كُلْها هنـــــــيئاً فإنـــــــمّا
خلقتُ إلى لبسِ المطارف والشّرب

وفي شعر جوهرة جارية المعتمد بن عباد شيءٌ من الجرأة مع سيدها المعتمد إذ تخاطبه وهي مدركة بأنها تخاطب ملكا إلا إن جرأتها جرتها إلى تناسي المكانة السياسية والاجتماعية فبدا متلقٍ عاشقٍ من معشوق يعاتبه ، وهذا دأب الشواعر الجواري في دولة بن عباد خاصة وعصر دول الطوائف عامة فقد كان المعتمـد يجلها ويحبها ويعتني بها وجرى ذات يوم عتاب ، ورأى أن يكتبَ إليها يسترضيها ، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمه ، وقالت[٥] :

لـــم تـــصفُ لـــي بعـــدُ وإلا فَلِـــمَ ... لـــم أرَ فـــي عنوانِهـــا جـــوهره
درت بـــأني عاشـــقٌ لأســـمها ... فلـــم تـــردْ للغـــيظ أن تـــذكره

(١) المصدر نفسه : ٥ : ٢١٣ .
(٢) المصدر السابق : ١ : ١٦١ .
(٣) اسقطنا هذه اللفظة والأبيات الأخرى إجلالا لذوق المتلقي ينظر: نفح الطيب : ١ : ١٦١ومابعدها .
(٤) المصدر نفسه : ٥ : ٢١٣ .
(٥)المصدر نفسه: ٥ : ٣٨ .

قالـــــــت إذا أبـــــــصره ثابتـــــــاً قبلـــــــــــه ، والله لا أبـــــــــــصره

ومن الشواعر المشهورات إلى جانب ولادة ونزهون وتميزت بجرأة لعلّها أكبر من غيرها حفـصة الركونية ، وقد عرفت بالجهر بالقول والصراحة ، ولها من الأدب والجمال ،والحـب ، والمـال ، مـا يقـع الإعجاب بها من ملك غرناطة إبان دولة الموحدين أبو سعيد بن عبد المؤمن حتى أخذته الغيرة وأجبرته على قتل غريمه أبي جعفر بن سعيد وكان الأخير يهيم حباً بها وتهيم حباً به ، وقد كتبت اشعاراً في حبهـا لابـي سعيد[١] ، وتأتي خصوصية الجرأة عند حفصة إنها عاشت في عصر فيه بعض الخصوصية ، ففي عـصرها تمدّدت سلطة الفقه والفقهاء فكانت بيئة ذات صبغة دينية ، وهذا ما عُرف به عصر الموحدين ، ودولة عبـد المؤمن بن علي ، ووصف المجتمع بالمغلق الديني ، لكنَّ ذلك لم يثنِ حفصة عن الإفـصاح عـن مـشاعرها شعراً فساجلتْ وطارحتْ الشعراء غزلاً بما كانت تحس به اتجاه العاشق ابن سعيد ، وقد نقلت المصادر هـذه المطارحات الشعرية منها عندما طلب أبو جعفر الاجتماع بها ، فماطلته قدر شهرين ، فكتب لها[٢] :

يـــا مَـــنْ أُجانـــبُ ذكـــرَ أســـــمـــــــــــه وحُبـــــــي علامـــــــة
مـــــا إن أرى الوعـــــدَ يقـــــضي والعمـــــرُ أخـــــشى انـــــصرامه
اليـــــــــوم أرجـــــــــوك لا أن تكـــــــــوني لـــــــه قيامـــــــه

فخوفه من الرقيب والواشي منعه من ذكر اسمها شغفا بحبها – وخوف الرقيب سلوك اجتماعي صار سـلوكا فنيا شعريا كان من ضمن أطر الشعر العربي سواء أكان في المشرق أم في الأندلس لإتحاد البيئتين في المورد – وفي الوقت نفسه يخاف ان لا تذهب هذه اللحظات مع انصرام العمر ، فيرجو اللقـاء بهـا ، ويـصورها رفضها بأنها القيامة ، وهي قصيدة من (٨) أبيات ، فأجابته[٣] :

يـــا مُـــدعِي فـــي الهـــوى الحـــســـــــن والغـــــــرام الإمامـــــــه
أتـــــــى قريـــــــضُك لكـــــــن لـــــــم أرضَ منـــــــه نظامـــــــه
أمُـــــــدعي الحـــــــب يثنـــــــي يـــــــأسَ الحبيـــــــب زمانـــــــه؟
ضـــــــللتَ كـــــــلَّ ضـــــــلال ولـــــــم تُفـــــــدك الزعامـــــــه
مازلـــــتَ تـــــصحب مـــــذ كثـــــر ت فـــــي الـــــسباق الـــــسلامه
حتـــــى عثـــــرتَ واخجلـــــــــــــتَ بافتـــــــــــضاح الـــــــــسآمه
بـــــالله فـــــي كـــــلٍّ وقـــــت تبـــــدي الـــــسحابَ انـــــسجامه
والزهـــــرُ فـــــي كـــــلِّ حـــــين يـــــشقُ عنـــــه كمامـــــه
لـــــو كنـــــتَ تعـــــرفُ عُـــــذري كففـــــتَ عـــــزبَ الملامـــــه

ووجهت هذه الأبيات مع موصل الرسالة بعدما لعنته وسبّته ، فانصرف الرسولُ فأخبر أبا جعفر بما قد حصل وسلمهُ الرقعة مكتوبةٌ الأبيات فيها، وقال له ما ساءَهُ ، فلما قرأ أبو جعفر الابيات قال للرسول : مـا

(١) المصدر السابق : ٥ : ١٠٤ .
(٢) المصدر نفسه : ٥ : ١٠٥ .
(٣) نفح الطيب : ٥ : ١٠٦ .

أسخف عقلك ! وأجهلك ! إنها واعدتني عند القبّة التي في جنتي المعروفة بالكمامة ، فسرّ بنا إلى هناك، فبادروا فما كان إلا قليلاً وإذا بها وقد وصلت واراد عتبها[١] فأنشدت[٢] :

دعي عدّ الذنوب إذا التقينا

تعالي لا نعد ولا تعدي

وقد لا تكون أبيات المساجلة بالمستوى الفني المطلوب إلا انها عُدت منهجاً لحرية الشاعرة رغم الرقيب وعين الحسود (فالشاعرات يعبرن عن خلجات نفوسهن ومعاناتهن وخفقات افئدتهن ، متشوقات ، فكان الشعر بطاقة حب تتوهج بالعواطف والاحاسيس ونافذة خضراء تطل فيها احلام عذراء تنتظر بشغف زيارة الحبيب)[٣] بل إنه صار شفرة الوصول عندما تضيق بها فسحة الحرية ، ولها أبيات تفصح عن ذات لا تستطيع التخلي عن الإفصاح وعن التشويق بل الإغراء ورغبة الجسد جسد عاشق للثم والقبل لاتهاب في ذكر ما يدور بخلدها وما يحتاجه الجسد العاشق ، وتدعوه لمغامرة عاطفية في ليلة أنس وغرام كاسرة كل قيود المجتمع التي اختزلتها البيئة العربية بماهو معروف عرفاً وصار تقليداً اجتماعياً ، تقول في هذه الأبيات[٤] :

أزورك أم تزورُ ؟ فأنَّ قلبي ... إلي ما تشتهي ابداً يميل

فثغري مورِدٌ عذبٌ زلالُ ... ومزيجُ ذؤابتي ظلّ ظليل

وقد اقلتُ أن نضما وتضمي ... إذا وافني إليك بي المقيل

فعجّلْ بالجواب فما جميلٌ ... ابؤك عن بثينة يا جميل

فالتخيير يبدأ باستفهام صادر عن ذات أنثى لا ذكر كما جرت العادة والتوسل والتصابي إنمّا يصدر عن ذكورية العاشق لا ميوعة الانوثة ، وهذا مسربٌ قلمّا وجدناه حاضرنا في الشعر العربي ، ثم أن دوافع التخبير حسيّة إغرائية ، القلب وميله ، والثغر العذب والزلال ، وظل الذوائب والضم والقبل ... ثم عجلة الشوق التي دبت حمياها في جسد حفصة ربمّا كانت متفردةً في ذلك الاغراء .

والأكثر جرأة من ذلك إنها كانت توصل رغبتها وعشقها إلى العاشق راجلةً أو تواعده بأبيات شعرية، فقد حدث مرة أنها طرقتْ بابَ الحبيب إبي جعفر ففتحت الجارية البابَ فقالت لها: ما تريدين ؟ قالت لها : ادفعي لسيدك هذه الرقعة ، فلما قرأها أبو جعفر، وجد هذه الأبيات: [٥]

زائراً أتى بجيدِ الغزال ... مطلع تحت جنحه الهلال

بلحاظٍ من سحر بابلَ صُنعتْ ... ورضاب يفوق بنتَ الدلال

يفصحُ الوردُ ما حوى منه خد ... وكذا الثغرُ فاضح للآلي

ما ترى في دخوله بعد إذنٍ ... أو تراه لعارضٍ في انفصال

فقال أبو جعفر (فعلمتُ أنها حفصة وقمتُ مبادراً للباب ، وقابلتها ما يقابل مَنْ يشفعُ له حسنُه،وأدبُه ، وجمالُه ، وعلمُه ، والغرامُ به، وتفضله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة من الأنس)[١] .

---

(١) ينظر : المصدر نفسه : ٥ : ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٥ : ١٠٦ .

(٣) نفح الطيب : ٥ : ١١٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٥: ١١٢

(٥) المصدر نفسه: ٥:١١٠.

وقد تفردت حفصة بفنها الحركي الجسدي والإغراء وتماثلتْ أبياتُها مع ما سبق من شعرها في هذا التوجه .

وفي نافذة أخرى من نوافذ الجرأة والصراحة التي هي باب من أبواب الحرية والانفتاح أسلوب الخطاب في المساجلة الشعرية دون النظر إلى المراتب بل النظر إلى القلوب وميلها فقد كانت العبادية وهي جارية المعتمد تخاطب سيدها خطاب العاشق والمعشوق دون التأثر بالمنزلة الاجتماعية أو السياسية . وكانت تعرف بالعبادية لأنها جارية ملك بن عباد المعتضد (وهي أديبة ظريفة وكاتبة وشاعرة وذاكرة للكثير من اللغة)[٢] . فقد روي أن المعتضد قال فيها[٣] :

تنامُ ومدنفُها يسهرُ وتصبرُ عنه ولا يصبرُ

فردت عليه[٤] :

لئِن دامَ هذا وهذا له سيهلكُ وجداً ولا يشعرُ

فالمرأة الشاعرة اذا ما أرادت ان تسير في مسارات الغزل وتخط لنفسها مسارا فيه وجب عليها القفز على الأعراف والتقاليد ومغادرتها، وأن تكسر الحواجز فتفعل مثلما يفعل الشاعر الرجل قبلها وسارت معه بالاتجاه نفسه وقد فعلت فهي تساجل وتخاطب المعتضد الذي عرف بقسوته وجلادته لكنه كان رقيقاً مع النساء.

وتتمتع بهذا القدر من الصراحة شاعرة أسمها عائشة القرطبية ويتمازج في أسلوبها الجرأة والقساوة والفضاضة فقد قيل عنها (لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة)[٥] وزد على ذلك غروراً وثقة بالنفس في اشعارها فقد ردت على بعض ممن خطبها ولم ترضه ، فكتبت بما تراه في نفسها رداً عنيفاً قاسياً تقول فيه[٦] :

أنا لبوه لكنني لا ارتضي نفسي مُناخاً طول دهري من أحد
ولو أنني اختار ذلك لم أُجبْ كلباً وكم غلقتُ سمعي عن أسد

ولأم العلاء بنت يوسف الحجارية (نسبة إلى وادي الحجارة) وهي من أهل المائة الخامسة ما يماثل رد عائشة لرجل أشيب عشقها فكتبت إليه[٧] :

الشيبُ لا يُخدع فيه الصبا بحيلةٍ فاسمعْ إلى نصحي
فلا تكنْ أجهل مَنْ في الورى يبيتُ في الجهلِ كما يضحي

(١) المصدر السابق : ٥:١١٠ .
(٢) المصدر نفسه : ٥ : ٢٠٢ .
(٣) المصدر نفسه : ٥ : ٢٠٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٥ : ٢٠٣ .
(٥) نفح الطيب : ٥ : ٢٠٢ .
(٦) المصدر نفسه: ٥ : ٢٠٨ .
(٧) المصدر نفسه: ٥ : ١٠٢ .

وبعد ذلك فالشاعرة الأندلسية تجاهر بما تراه في أغراض شتى في مدحها وهجائهـا ، وشـكواها ، وغيرها من موضوعات ، وقد استوعبت معطيات بيئتها ، وليس مجال البحث الخوض في موضوعات أخـر إلا ما حددته طبيعة البحث في الغزل فهو أقرب الدوافع للتصريح وأبعد عن التلميح .

الجرأة في الفاظ الغزل:تُبرزُ رؤية الشاعرة الأندلسية الذاتيَّة في شِعرها الغزلي عبر منظومة الألفاظ وتراكيب اللغة لترسم صورة فنية تعبر بها عما يختلج في صدرها حباً، وعشقاً ، وهياماً بل تظهر المشاعر المتناقـضة اتجاه الرقيب والواشي وهذه الرؤية المرسومة هي وسيلتها للإفصاح وإعلام الآخر، ويمكن ان نرى تجليـات هذه الألفاظ في النصوص الشعرية باتجاهين وظفتها الشاعرة الأندلسية الاول مكنتها جرأتها في منح الفاظهـا طاقة ايحائية داخل النص تساعدها في التعبير عن مضامين ومعاني موضوعها ، والثـاني وبـالجرأة نفـسها استعملت الألفاظ استعمالاً مباشراً بألفاظ واضحة ودالة على المعنى المراد إظهاره ٠ فالمقطوعـة الـشعرية التي غنتها الشاعرة الجارية (متعة) التي تقول فيها[١] :

يـــا مـــن يغطـــي هـــواه ... مـــن ذا يغطـــي النهـــارا
قـــد كنـــت أملـــك قلبـــي ... حتـــى علقـــتُ فطـــارا
يـــا ويلتـــاه أتـــراه ... لـــي كـــان أو مـــستعارا
يـــا بـــأبي قرشـــي ... خلعـــت فيـــه العـــذارا

فحسن استعمال اللغة قد نفذ بها إلى غايتها وهي الافصاح عن فرط اعجابها بالأمير فالتلميح (يا مـن يغطي هواه)،ثم توسلت بإيحاءات من خلال استعمال الفعل الماضي (كنت،علقت) حتـى إذا كانـت الجـرأة والتصريح في البيت الأخير (يا بابي قرشي) و(خلعت منه العذارا) . فانتقلت مـن التلمـيح إلـى التـصريح المباشر... فأدرك ذلك زرياب فأهداها له [٢] .

وضمن آليات حوارية كانت اللغة وسرعة البديهية والارتجال إحدى هذه الآليات ، فاعتمـاد الروميكيـة قادتها اللغة والبراعة وسرعة البديهية لكي تكون سيدة القصر وأم الأمراء في الدولة العبادية عبر النفوذ مـن شطر بيت شعر أكدت تراشقها اللفظي وصلابة صنعتها وحُسن ادائها في إجازتها لشطر بيت المعتمد [٣]:

صنع الريح من الماء زرد

فاجازته بقولها:

صنع الريح من الماء زرد ... أيّ درع لقتال لو جمد)

في حين اتكأت ولادة على الحركية الحسية والمشهد الخبري الايحائي حين تقول[٤] :

أنـــا والله أصـــلح للمعـــالي ... وأمـــشي مـــشيتي وأتيـــه فيهـــا
وأمكـــن عاشـــقي مـــن صـــحن خـــدي ... وأعطـــي قلبـــي مـــن يـــشتهيها

فالضمير (أنا) للتفخيم ثم التوكيد بالقسم (والله) لتعزيز الخيلاء من خلال الألفاظ (امشي مـشيتي) و (واتيه) منحت الجسد انوثة وحركية تحركها الغريزة وبذلك اصبح للجسد لغة ورسمت له صورة الغنج عبـر

(١) نفح الطيب : ٣ : ٣٨٩ .

(٢)المصدر نفسه : ٣ : ٣٩٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٥ : ١٣٨-١٣٩ .

(٤) المصدر السابق : ٥ : ١٣٣ .

حسية الصورة الشعرية وليس صورة الخيلاء هي موطن الجرأة وإنما التمكين والعطاء بأنوثة ورقة وبلغة صريحة دون ايحاء لهذا التمكين ، ، فقد كان المشهد مشهداً حسياً تحركه الشهوة وتحدد نشاطه الرغبة بصورة مستمرة ، لذلك نجد تأكيدا على مشاهد صورية حسية لحركات الجسد في شواعر عصرها وما بعده [١]. ولها ابيات شعرية تخاطب ابن زيدون متوسلة بالزمن عبر لفظة الليل تسبقه حالة الترقب لإفراغ حاجة الجسد فالضمائر المتصلة (فأني)(وبي) هي وسيلتها لنقل لواعج الشوق المكبوتة –التي قد لا تحتملها شمس ولا قمر ولا نجوم – الى المخاطب الحبيب فتقول [٢] :

ترقبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي ... فإنَّي رأيتُ الليلَ أكتمُ للسرِ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ ... وبالبدرِ لم يطلعْ وبالنجم لم يسرِ

فالفعل (ترقب) والتركيب (وبي منك) ← للمخاطب (أخا البدر سناءً وسناً) خطاباً مباشراً فيه لتعبر عما تشعر بداخلها جريئة فيهما مع جمال السبك ورقة في الشاعرية واللفظ الجميل لتفصح عن لواعج صورتها بأروع صورة ،فلما وفت بما وعدت ودعته بقولها[٣] :

ودَّع الصبرَّ محبٌ ودعَك ... ذائعُ في سرّه ما استودعك
يقرع السنَّ على أن لم يكن ... زادَ في تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنا ... حفظَ الله زماناً أطلعك
إن يطيلَ بعدك ليلي فلكم ... بتُّ أشكُو قصرَ الليل معك

فإذا ما اشبعت رغباتها (ودّع الصبرَ محبّ) (ذائع في سره) (يقرع السن) (فراد الخطا) ثم (بت أشكو قصر الليل معك) مرسل أنثى تتغزل بصفات محبوب رجل على غيره العادة ما أورثناه من خطاب موجه لأنثى / مرسل ذكر.

ولها شعر لا ينمُ عن حياء فاللفظة البذيئة والقذف أبرز معالم نصها الشعري الذي تصف به ابن زيدون فقد لقبته بـ(المسدس) فتقول فيه [٤]:

ولُقبتَ بالمسدس وهو نعتٌ ... تفارقُك الحياةُ ولا يفارق
فلوطيٌ ومأبونٌ وزانٍ ... وديوثٌ وقرنانٌ وسارق

وقالت فيه ايضا [٥]:

إن ابن زيدون على فضله ... يعشقُ قضبان السراويل
لو ابصرَ... [٦]على نخلةٍ ... صارَ من الطير الأبابيل

ولشاعرة اسمها عائشة القرطبية رد قاس لرجل خطب ودها ، تقول فيه[٧] :

---

(١)الشعر الاندلسي : غارسيا غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٦ : ١٣٥ .

(٢) الادب الأندلسي : التطور والتجديد : د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت، لبنان ط١ ، ١٩٩٢ .: ٨٥ .

(٣) نفح الطيب : ١٣٥ .

(٤)المصدر نفسه : ١٣٣ .

(٥)المصدر نفسه : ١٣٣ .

(٦) حذفت الكلمة حياء واجلالا للقارئ.

(٧) نفح الطيب : ٥ : ٢٠٨ .

أنـــا لبـــوةٌ لكنّنـــي لا ارتـــضي نفـــسي مُناخـــاً طـــولَ دهـــري مـــن أحـــد
ولـــو أنّنـــي أختـــار ذلـــك لـــم أُجـــبْ كلبـــاً وكـــم غلقـــتُ ســـمعي عـــن أســـد

فقد غيبت الشاعرة عائشة القرطبية بإسفافها في استخدام الفاظ الذم وتصوير المخاطب تصويرا ساخرا غيب معالم الثقة بالنفس والجرأة والصلابة .

ولأم العلاء بنت يوسف الحجارية (نسبة إلى وادي الحجارة) وهي من أهل المائة الخامسة ما يماثل رد عائشة لرجل أشيب عشقها ، فكتبت إليه[١] :

الـــشيبُ لا يُخـــدع فيـــه الـــصبا بحيلـــةٍ فاســـمعْ إلـــى نـــصحي
فـــلا تكـــنْ أجهـــلُ مَـــنْ فـــي الـــورى يبيـــتُ فـــي الجهـــلِ كمـــا يـــضحي

ولنتأمل أبيات حفصة الركونية ، فأنها تطفح بلغة شعرية جميلة ، وصورة للعشق ناطقة وللهيام العذب والجرأة إنها صراحة القول، والافصاح عن حبها، فتقول[٢] :

أغار عليك من عينّي رقيبي ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أنَّي وضعتُك في عيوني إلى يوم القيامةَ ما كفاني

ولها ايضا[٣]:

أزورك أم تـــزورُ ؟ فـــأنَّ قلبـــي إلـــى مـــا تـــشتهي ابـــداً يميـــل
فثغـــري مـــوردٌ عـــذبُ زلالٌ وفـــرعُ ذؤابتـــي ظـــلٌ ظليـــل
وقـــد اقلـــتُ أنْ نـــضما وتـــضمي إذا وافنـــي اليـــك بـــي المقيـــل
فعجـــلْ بـــالجواب فمـــا جميـــلٌ إبـــاؤك عـــن بثينـــة يـــا جميـــل

ومن الجدير بالملاحظة هذه الدعوات الصريحة في مطالع الابيات التي لم يألفها الشعر النسائي العربي بأن تكون هي المبادرة بالخطاب لإفراغ المشاعر من كبتها (ازورك أم تزور) و مطلع ابيات ولادة(ترقب زيارتي) وتستحضر مفاصل التراث عبر قصة العاشقين جميل وبثينة الا اننا وجدنا في الاندلس بثينة تستعجل ود جميل (وعجل بالجواب ياجميل) ،زد على ذلك الجناس التام بين جميل الاولى والثانية ، فمن هذه اللمحات اختلفت شاعرية شواعر الأندلس في غزلهن .

ومن هذه المطالع قولها [٤] :

زائـــراً أتـــى بجيـــد الغـــزال مطلـــع تحـــت جنحـــه الهـــلال
بلحـــاظ مـــن ســـحر بابـــلَ صـــنعت ورضـــاب يفـــوق بنـــت الـــدلال

ولها ايضا من جميل الصورة التي نفذت اليها عبر المحسنات اللفظية من جناس وطباق [٥]:

(١) نفح الطيب : ٥ : ١٠٢ .
(٢) المصدر نفسه : ٥ : ١٠٨ .
(٣) المصدر نفسه : ٥ : ١٠٩ .
(٤) نفح الطيب : ٥:١١٠.
(٥) المصدر نفسه : ٥ : ١٠٩ .

ثنـــائي على تلك الثنـــــــايا لأنـــــــني أقول على علم وأنطق عن خبر

وانصفها – لا أكذب والله– انني رشفت بها ريقا أرق من الخمـــــــــــــــر

(الصورة الغزلية على جرأتها لصدورها من امرأة جمعت الى الصراحة حسن التصوير واصطناع الدلال كما عمدت إلى صيغة الجد الساخرة في تحرزها (لا أكذب والله) والجناس بين الثنا وثنايا، وريق وارق ، والجناس المعنوي (أقول عن علم وانطق عن خبر)ـ

وللشاعرة أم الكرام مثل هذه الدعوة الصريحة للقاء(ألا ليت شعري هل سبيل الى خلوة؟) ، فتقول[1] :

ألا ليت شعري هل من سبيل الى خلوة؟ ينـــّــــــزه عنها سمع كل مُراقـــــــــــب

ويا عجبا أشتـــــاق إلى خلوة من غـــــدا ومثواه ما بين الحشـــــــــــــــــا والترائب

وبالمجمل العام فان اللغة لتجربة الشعر النسائي امتازت بالبساطة والـسهولة، وهـي قريبـة الفهـم، والأساليب البلاغية المتبعة سواء أكانت إنشاءً أم خبراً ؟ فأنها كانت خاضعة لمتطلبات النص المتغيرة، وهـى في معظمها بسيطة، رقيقة، أنثوية الألفاظ والتعبيرات ، لكنها جريئة في المعاني والالفاظ .

الخاتمة

استنفدت الشاعرة الأندلسية سعة الحضور، وتجلي المكانة ، وفسحة من الحرية نتيجة للامتزاج الذي كان سائداً بين عناصر تكوين المجتمع الأندلسي فعبرت عن نفسها بشكل جريء لا يخلو من الابداع . ساعدها في ذلك المجالس الأدبية التي تولين إدارتها ، ومخالطة الرجال مبتعدة عن القيود الاجتماعية بشيء يسير وعن القيم الدينية ، فوجدنَّ مجالاً للخيلاء والتعبير عبر المساجلة الشعرية أو المطارحات وحوارات شعرية فكشفت عن خبايا هذه الذات.

– الحاجة إلى المرأة الجارية جعلتها جزءاً من مظاهر التضخيم والابهة التي حفلت بها قصورهم لاسيما اذا كانت تحسن الغناء والشعر .

– ضياع أغلب المنجز الشعري النسوي في الأندلس أثر سلبا في العناية بهذا المنجز وعدم منحه ما يستحق من الدراسة والبحث.

– أكثر المساجلات التي تمتاز بالجرأة إنمّا يكون المرسل على الأعم الأغلب من الشاعرات الجواري لغاية نفعية أما حباً للظهور أمام مولاها والحضور عنده ، أو للتنفيس عن حالة العبودية في داخلها والثقة بجمالها ، وحُسن مفاتنها عرضا لبضاعتها.

– اقتران شعر الأميرات بشعر الجواري بالمعاني ذاتها فشكلت ولادة ظاهرة متفردة في الجرأة ففتحت المجال لغيرها للاحتذاء بها لأنها تمثل قامة سلطوية (دينية ، دنيوية) كونها بنت الخليفة بل إنها أقرب للابتذال في مساجلاتها مع ابن زيدون . ومثلت نزهون القلعية الغرناطية انموذجا– في بعض أشعارها – للبذاءة وقسوة الرد فقد كان في شعرها نوع من التحلل والابتذال والفحش وصراحة غير معهودة وجرأة غير مألوفة الخطاب ارتضتها روح العصر ومعطياته مما يشير إلى نفسية متحررة ماجنة .

– تُبرزُ رؤية الشاعرة الأندلسية الذاتيَّة في شِعرها الغزلي عبر منظومة الالفاظ وتراكيب اللغة مستخدمة مرة بالإيحاء من خلال هذه الألفاظ ومرة من خلال المباشرة ووضوح اللفظة وقصديتها.

(١) المصدر نفسه : ٥ : ٢٠٦ .

- أنمازت بعض نصوص غزلهن الشعرية بمطالع تحمل الثقة والجرأة بان تكون هي المبادر بالخطاب واللقاء، فالدعوات الصريحة في مطالع الابيات لم يألفها الشعر النسائي العربي بان تكون هي المبادرة بالخطاب لإفراغ المشاعر من كبتها.

المصادر

اتجاهات الشعر الأندلسي: د. نافع محمود ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩، ط١ .

اخبار من غنوا ومن غني بشعرهم من الخلفاء والامراء ونحوهم من ذوي الشأن من ظهور الاسلام الى القرن الرابع الهجري (السفر الاول) اخرجه وقدم له : قاسم وهب ، وزارة الثقافة /المختار من التراث (١١٩) سوريا ، دمشق ٢٠٠١ .

الادب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٦٢ .

الادب الأندلسي:التطور والتجديد : د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجبل ، بيروت، لبنان ط١ ، ١٩٩٢ .

الادب الأندلسي:التطور والتجديد : د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجبل ، بيروت، لبنان ط١ ، ١٩٩٢ .

الادب في الأندلس،تطوره – موضوعاته واشهر اعلامه، د. علي محمد سلامة ، الدار العربية للموسوعات ، ط١ ، ١٩٨٩ .

الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة ، د. رضا هادي عباس ، منشورات ELGA ، ١٩٨٨ ، نص رقم (٣٦) ونص رقم (٣٧) .

البيان المغرب في اشعار اهل الأندلس والمغرب لابن عذار المراكشي ، تحقيق اليفي بروفنسال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٩ .

قراءات في الشعر الأندلسي: د. صلاح جرار ، دار المسيرة للتوزيع والنشر ، الاردن ، ط٢ ، ٢٠٠٩ .

تاريخ الادب الأندلسي (عصر الطوائف) : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٦٢ .

تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي د.حسن ابراهيم حسن ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، د.ت .

تاريخ المغرب الأندلسي في العصر الإسلامي : د. محمد سعيد رضا علو العتبي ود. محمد بشر حسن راضي العاملي : وزارة التعليم العالي العراقية ، بابل ، مكتبة الياسين ، د.ت .

التجديد في الأدب الأندلسي: د. باقر سماكة ،مطبعة الأيمان ،بغداد ،١٩٧١، ط١ .

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الكتاب الثاني من دولة الاسلام في الأندلس) ، محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

الذخيرة في سن أهل الجزيرة : لابن بسام الشنتريتي (ت. ٥٤٢هـ) ، تح. د. احسان عباس ، ط١، بيروت ، دار الثقافة ، ق١ ق٢ ق٣ ق٤ .

سرح العيون في شرح رسائل ابن زيدون : جمال الدين بن نباته المصري ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت) .

الشعر الاندلسي :غارسيا غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٦.

الشعر النسوي في الأندلس : محمد المنتظر ، تقديم عبد الله كنون ، منشورات دار الحياة ، بيروت، ١٩٧٨ .

الشعر النسوي في الأندلس اغراضه وخصائصه الفنية ، سعد بوقلاقة ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، ١٩٩٥ .

الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د. محمد مجيد السعيد ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٠ .
ظهر الاسلام ،احمد امين ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
ملامح الشعر الأندلسي ، د. عمر الدقاق ، دار الشرق العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٣ .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني(ت. ١٠٤١هـ) ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، مكتبة البحوث في دار الفكر ، لبنان ، ١٩٩٨ .